بين الشريعة والحقيقة

للدكتور عبد الحليم محمود

استاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

« رأى المرحوم الشيخ عبد الواحد يحي »(١)

يبدو أن كثيراً من الناس يشكون فى ضرورة التزام الشريعة لمن يريد أن يسلك السلوك الصوفى ، وهذا فى الواقع استعداد نفسى لا يوجد إلا فى الغرب الحديث ، ولا شك فى أن أسباب ذلك متعددة ، ولا يعنينا هنا البحث فى مدى المسئولية التى تقع على عاتق رجال الدين أنفسهم الذين يميلون إلى إنكار كل ما يتجاوز حدود الشريعة فى مظهرها الحرفى ، فليس ذلك جوهر بحثنا هنا ؛ بيد أنه من المدهش أن بعض من يقعون فيما وقع فيه رجال الشريعة ، وإن كان بطريقة عكسية ، ذلك أنهم ينكرون ضرورة الشريعة أو يهملون العمل بها .

وقد يكون من المحتمل أن نرى أحد ممثلى الشريعة يجهل التصوف ، وإن كان جهله لا يبرر إنكاره ، ولكن ليس من المحتمل وليس من الطبيعى أن يجهل رجل التصوف ميدان الشريعة ، ولو من جانبها العملى ، ذلك أن الأكثر ، وهو . « التصوف » يتضمن بالضرورة الأقل ، وهو . « الشريعة » .

---

(١) الشيخ عبد الواحد يحيى من كبار المفكرين العالميين ، نشأ فى فرنسا كاثوليكيا ، وانتهى به البحث إلى الإسلام والتصوف ، ومارس التصوف نظريا وعمليا ، حتى ليعد أكبر الحكماء فى العصر الحديث ، وقد توفى بالقاهرة منذ بضع سنوات ، وترجمت كتبه إلى اللغات الحية ، وأثره فى الغرب كبير ، إلى درجة أن كثيراً من الجمعيات فى أوروبا كونت باسمه لتتابع أثره وتحذو حذوه ، وهو فى هذه الكلمة يكتب عن تجربة وخبرة وممارسة لا عن وجهة نظرية فحسب .

على أن نظرة من يريد أن يسلك السلوك الصوفى ، إلى الشريعة ، من حيث عدم أهميتها ، وعلى الخصوص ، أهمية الجانب العملى منها بالنسبة له .. هذه النظرة تتضمن ، ولو نظريا ، تقليل أهمية الجانب العملى فى التصوف نفسه . وفى هذا الخطورة كل الخطورة ، فإنه من المشكوك فيه كثيراً ، أن يتوفر للشخص الذى عنده هذه الفكرة ، الاستعداد الصوفى ، ومن الخير له أن يلتزم الشريعة التزاما كلياً قبل أن يبدأ السلوك ، فإذا لم يمكنه التزامها فلا خير فيه ، بالنسبة للجانب الصوفى .

إن تقليل شأن الشريعة إنما هو مظهر من مظاهر الروح التى لا تبالى بما أنزل الله . وإعادة تكوين الروح الخاضعة لما أنزل الله هو أول خطوة فى طريق السالكين .

وتجاهل الناحية العملية : إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث على الخصوص ومن الطبيعى أن يقوم الجو الدنيوى الذى يعيش فيه الغربيون عقبة فى سبيل فهمهم للجانب العملى من الشريعة وممارستهم له ، بيد أن مقاومتهم لهذا الجو الدنيوى ، هو بالضبط العلاج لانحرافهم هذا ، وهو السبيل إلى عودتهم إلى النهج المستقيم . أعنى التزام الشريعة .

قلنا : إن الاتجاه النفسى الذى نتحدث عنه هنا : إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث . وفى الواقع لا يمكن أن يوجد هذا الاتجاه فى الشرق ، ذلك أن الروح الدينية الصحيحه لا تزال مسيطرة فى بيئاته .

ثم أن الشريعة والحقيقة متصلتان اتصالا يجعل منهما مظهرين لشىء واحد ، أحدهما خارجى والآخر داخلى ، أو أحدهما ظاهر والآخر باطن .

لذلك كان ما يوجد فى الغرب الآن ، من جماعات تدعى أنها على النهج الصوفى وهى مع ذلك لا ترتكز على أية شريعة إلهية ، مجرد خداع ، ومن البديهى أن هذه الجماعات — من وجهة النظر الصوفية الصحيحة — ليست على شىء .

ولشرح الأشياء بأبسط الطرق نقول :

إن الإنسان لا يشيد القصر فى الهواء ، إنه لا يشيده على غير أساس ، وكل

فكرة لا ترتكز على أساس من السنة الصحيحة إنما هى بناء فى الهواء ، إنها بناء على غير أساس .

والبناء الذى يمكن أن يبقى على الدهر لابد له من أساس مدعوم ، وعلى الأساس يرتكز البناء كله ، حتى الأجزاء العليا منه ، والارتكاز على الأساس يستمر حتى بعد انتهاء البناء .

وعلى هذا النمط تكون النسبة بين الشريعة والتصوف ، فالشريعة الصحيحة هى الأساس الذى لابد منه لكل سالك ، وكالأساس تماما . لا يمكن طرح الشريعة بعد سلوك الطريق .

بل نقول أكثر من ذلك : إنه كلما سار المتصوف فى طريقه واستغرق فيه ، بدت له ضرورة الشريعة واستنارت معرفته بها ، وأصبح فهمه لها أكثر عمقا وأكثر دراية بحقيقتها من هؤلاء الذين درسوها وآمنوا بها دون أن يضربوا بسهم فى الميدان الصوفى ؛ ذلك أنهم لا يرون من الشريعة إلا مظهرها الخارجى ، ولكن الصوفى يعيش فى جوها الروحى ، ويحياها ، إذا أمكن هذا التعبير .

على أن هذا الذى لا يعتنق شريعة صحيحة ولا يلتزمها ، لا يمكن أن يحيا إلا حياة دنيوية بحتة ، فلا يمكن أن يطلق عليه رجل دين فضلا عن أن يطلق عليه وصف الصوفى .

على أن الغربيين الذين يجعلون الدين بمعزل عن نشاطهم اليومى ، كما هو شأن الأكثرية الساحقة منهم ، لا يمكن أن يوصفوا بأنهم متدينون ، وإن آمنوا بعيسى وأدوا الشعائر الكنسية .

وإذا كان لا يقبل من رجل الدين أن يعلن تدينه دون أن يجعل للشريعة السيطرة على قياده ، فإنه لا يقبل من باب أولى من رجل التصوف أن يزعم انتسابه إلى الصوفية دون أن تسيطر شعائر الدين والتزاماته على حياته .

وهناك لاشك ، نوعان من الحياة : حياة دينية وحياة دنيوية ، ومع ذلك فالفرق

بينهما إنما هو من جهة ما تصطبغ به فكرة الإنسان عن الأعمال التى يؤديها .

أريد أن أقول : إن الأعمال فى نفسها لا توصف بأنها دينية أو دنيوية وإنما يتأتى لها أحد الوصفين بسبب سيطرة الفكرة الدينية عند القائم بهذه الأعمال أو عدم سيطرتها ؛ وقد يكون العمل واحدا فى نوعه ويؤديه شخصان ، فيوصف عند أحدهما بأنه دينى وعند الآخر بأنه دنيوى ، فإن كان القصد الله فالعمل دينى وإن كان القصد شيئا آخر فالعمل دنيوى ، والحديث الشريف يوضح هذه الفكرة كل التوضيح :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه » .

ومن البديهى أن الحديث فى أوله عام بالنسبة لكل الأعمال ، وأن مسألة الهجرة فيها تطبيق جزئى لقضية عامة .

وفى العصور القديمة لم يكن هناك تفرقة بين دين ودنيا ، بل لم يكن هناك مجرد الفهم أو مجرد التخيل لفكرة الانفصال هذه ، وإنما نشأت هذه الفكرة حينما تدهورت الإنسانية وانحطت شيئا فشيئا ، وها نحن أولاء قد وصلنا فى هذا التأخر إلى درجة أن الغرب حاليا يصعب عليه كل الصعوبة أن يفهم فكرة ضرورة سيادة الروح الدينية فى مجتمعاته ؛ إنه على نهج انفصالى لا يوجد فى الحياة السليمة .

وإننا نرى ضرورة التزام الشريعة لكل إنسان ، ولكننا نؤكد - ونحن على يقين من الأمر - لهؤلاء الذين يريدون أن يسلكوا الطريق الصوفى ، بأنهم لن يصلوا حتى إلى أولى مراحل الطريق إذا لم يلتزموا الشريعة التزاما تاما .

وبالله التوفيق .

بين شقيق البلخى وهارون الرشيد

التقى شقيق البلخى الصوفى الزاهد بهارون الرشيد فى موسم الحج ، فقال هارون: أأنت شقيق الزاهد ؟ قال : أنا شقيق ولست بزاهد ، فقال له أوصنى . فقال : إن الله تعالى أجلسك مكان الصديق ، وإنه يطلب منك مثل صدقه ، وإنه أعطاك موضع عمر بن الخطاب الفاروق وإنه يطلب منك الفرق بين الحق والباطل مثله ، وإنه أقعدك مكان عثمان بن عفان ذى النورين وهو يطلب منك مثل حيائه وكرمه ، وأعطاك موضع على بن أبى طالب وهو يطلب منك العلم والعدل كما طلب منه .

فقال له : زدنى من وصيتك . فقال : نعم ، اعلم أن لله تعالى داراً تعرف بجهنم ، وإنه قد جعلك بواباً عليها ، وأعطاك ثلاثة أشياء : بيت المال والسوط والسيف ، وأمرك أن تمنع الخلق عن دخول النار بهذه الثلاثة .

فمن جاءك محتاجاً فلا تمنعه عن بيت المال ، ومن خالف أمر ربه فأدبه بالسوط ، ومن قتل نفساً بغير حق فاقتله بالسيف ، بإذن ولى المقتول ، فإن لم تفعل ما أمرك فأنت الزعيم لأهل النار والمقدم إلى دار البوار .

فقال له : زدنى . فقال : إنما مثلك كمثل معين الماء وسائر العلماء فى العالم كمثل السواقى ، فإن كان المعين صافياً لا يضر كدر السواقى ، وإذا كان المعين كدراً لا ينفع صفاء السواقى .

قال : زدنى . قال :

اجعل الله نجاحك فى كل عمل ، واجعله معك فى كل نية ؛ وانظر إلى شئون الناس قبل شئون بيتك ، واحذر أن تنتقض عروة من عرى الدين فى عهدك ، أو أن ينتقص شبر من أرض الإسلام فى ولايتك ، فكل امرىء يوم القيامة يسأل عن نفسه ، وأنت تسأل عن المسلمين كافة .

ثم ولى شقيق منصرفا . فقال هارون رويدك . حتى . نحسن صلتك ، فصاح شقيق ، لو نشدنا صلتك لم نحسن نصحك .